

فَكَاهَاتِ

رَقَائِصُ

العجب المفاجئ (١)

كان في لمبرديا امير عظيم الشأن واسع الثروة يقال له روبرتو لم يرزقه الله سوى ابنة وحيدة سماها روزا فكانت تلك الابنة موضع عنايته واهتمامه وقد وقف عليها جميع عواطفه واتخذها بغية من دنياه. ولما كان احد الايام اخذ الامير ابنته وخرج بها يتمشى على ضفاف النهر فبينما هما هناك وقد جلسا على صخرة تجاه النهر اذا جماعة غلمان يلعبون على الرمال وكان بين هؤلاء الغلمان فتى في الرابعة عشرة تلوح على وجهه سمات الفطنة والذكاء ويظهر من ملامحه انه من ابناء الكرام غير انه كان بين اصحابه ساكتا منكسرا ورأى الغلمان منه ذلك وقد عرفوا انه غريب فكانوا يعبتون به ويتدافعونه بينهم وهو صابر على فظاظتهم. ثم سقطت قبة احدهم في الماء فامروه ان ينزل ويأتي بها فأطاع وألقوا له غصنا من شجرة ليجذبوه به فلما بلغ الفتى طرف الغصن تركه الغلمان وكان الفتى لا يحسن السباحة فجعل يختبط في الماء وقد اوشك ان يغرق. فلما رأت ابنة الامير ذلك ادركتها الشفقة عليه فتوسلت الى ابيها ان يأمر الغلمان بتخليصه فصاح الامير بهم ان يسرعوا في انقاذ ذلك المسكين فلم يبالوا به فشق ذلك على الامير

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

وبعد ما قطعنا مسافة منها لمع في عيني روبرتو شي في وسط الظلام عرف الحال انه حديد بندقية وتلا ذلك صوت صائح من القدام. ولما لم يجبه اذا بطلق نار قد دوى في الفضاء وتبعته صيحة عظيمة فسقط روبرتو وجواده الى الارض ولما رأت روزا ذلك وثبتت عن جوادها الى الارض كأنها اللبوة الفاقدة اشبالها وصاحت ويل لكم يا ثعالب الليل تعالوا خذوا ما نملك ودعوا الارواح للالكها. وكانت شدة الرياح اعترضت صوتها فلم يسمعه سوى روبرتو وكان الرصاص قد اصاب جواده فقتله ولم يصب هو بسوء فوثب على قدميه وعطف الى روزا ليسكن روعها. ثم خطر له ان اولئك القوم ربما كانوا مرسلين من قبل والدها لامساكه ولكي يغالطهم ويؤوه عليهم معرفته كلمهم بالفرنسوية بلهجتها الفصحى وقال من اتم ايها القوم وما شانكم اقتربوا منا ولا يرينكم من جهتنا خشية فاننا اعزلان من السلاح. وكان ما فاه به زاد في حنق اولئك الرجال وشراستهم فقفذوه بشتائم قبيحة وتقدموا الى ناحيته وكان مع احدهم مصباح ضعيف فادناه منهما ثم صاح ويل للرهبان فانهم جرثومة الشر. فقال زعيمهم نحن لا يهمننا الرهبان ولا العامة ولكن يكفي انهما فرنسويان فلا بد من قتلهما. فقال روبرتو اسمع يا هذا خذوا ما معنا واعفوا عن دماءنا فاننا لم نجن في حياتنا ذنبا. فقال الزعيم اخرس يا رجل فكفالك ذنبا انك فرنسوي ولا يجوز ان نبقى على فرنسوي. ثم امر اتباعه فاوثقوها وقادوها الى مغارتهم

ورأى روبرتو ان زعيم هذه العصابة لا يهمله المال ولا هو من قطاع السبيل ولكنه رجل ايطالياني اقسم ان ينتقم من الفرنسيين لفادحة

اصابته منهم ايام استولى نابليون بونابرت على اواسط ايطاليا واستباح اهلها فكلهم بالاطالانية وقال ان كنتم ايها القوم ساخطين على الفرنسيين فدعونا وشأننا لاننا ايطاليان . فلما سمعوه يتكلم بالاطالانية وقفوا مبهوتين ثم احاطوا بهما وقالوا من انتما واين تقصدان في هذا الليل . فقالت روزا اما اذا لم يكن بد من اطلاعكم على حقيقة امرنا فاسمعوا ما القيه اليكم ثم اخذت تقص عليهم حديثها حتى اتت على آخره . فقال الزعيم ولم لم يقبل والدك ان يكون هذا الباسل بعلاً لك . قالت لانه رجل فقير لا يعرف له اهل ولا والدان . فقال وكيف ذلك ايها الفتى . قال تشتت شمل أسرنا حين قدوم نابليون الى هذه الاقطار ولا ادري هل مات والدي ام لا يزال حياً يرزق وليس في يدي من المال ما يمكنني من البحث عنه . فزفر الزعيم زفرة حارة ثم قال جبر الله كسر كاسك ايها الفتى وأظفرك بأسرتك وانتقم لنا من ذلك الغاشم العتي جزاء ما جنى على الابرياء من الولايات والمظالم . قال فهل يأذن لي المولى ان استفهمه عن شأنه وما نابه من ذلك الوحش الضاري . قال انا احد امراء الايطاليين من لمبرديا وقد كنت حاكماً فيها وقضيت ايامي الاولى في العز والنعيم وقبل حلول الحوادث الاخيرة بسنة كنت قد تزوجت بفتاة هي مثال الادب والكمال فلما وفد علينا ذلك الظالم بخيله ورجله اضطرت ان اهاجر فيمن هاجر وقد تقوض ركن عزي وسعادتي ونجوت مع زوجتي تحت جناح الظلام وفي اثناء ذلك ادرك زوجتي الخاض فوضعت لي ابناً في بيت راع قبلنا عنده مدة من الزمن ثم قضى الله على زوجتي على اثر ذلك الشقاء فقضت نحبها ولبت اياماً ابكيها واسهر

على ضريحها . ولما لم تعد تتمكني الاقامة تركت ولدي عند ذلك الراعي وارتحلت الى سويسرا فاقت بها الى ان اذن الله في كشف ظل ذلك العاتي واندحاره عن الوطن فعدت الى الراعي فلم اقف له على اثرها انا اليوم قد تجردت من زوجتي ووحيدتي وبقيت ثاكلاً حزيناً لا اجد سلوة ولا عزاء ولذلك فقد آليت ان لا ارجع الى وطني واملاكي حتى اقتل كل فرنسوي اصادفه ومعى هؤلاء الجماعة وما فيهم الا من اصابته داهية من مثل ما اصابني وقد صممنا جميعاً على طلب الانتقام . ثم صاح قائلاً لتمع فرنسا عن وجه الارض وليت الفرنسيين . فكرر اصحابه تلك العبارة ثلاثاً بصوت واحد فكان لها في تلك الغابة صدى بعيد وعقبها سكوت عميق

وانتفت الزعيم الى روبرتو فراه غائصاً في لجة من الافكار وقد استولت عليه الحيرة والجمود فقال ما بالك ايها الفتى وهل تشكو من شيء . قال اشكو من شقائي ومن غموض حياتي . ذكرت ايها الامير انك تركت ولدك عند الراعي فهل دعوته باسم قبل ان تفارقه . قال نعم دعت والدته روبرتو على اسم اخيها الذي كان حاكماً في البندقية . فشهمت روزا ووقف روبرتو وقال وما اسم الراعي الذي تركت ولدك عنده . قال اسمه برزودو . قال وما اسمك انت . قال الامير توندو . فصاح روبرتو وقال انا اسمي روبرتو وقد ربيت عند رجل يسمى برزودو رباني عنده الى ان ضاقت احواله فصرني لالتمس قوتي واخبرني اني ولدت عنده وانت ابي يسمى توندو وأمي يقال لها تريزا . فقم يا والدي وقبل ابنك فقد اعاده الله عليك ثم القى نفسه في حضن والده فتعانقا وبكيا وبعد ان اشتفيا من غليل

اشواقهما قالت روزا قم ياروبرتو ودع ابنة خالك تقبل زوج عمتها فاذا كان ما سمعته حقيقة كانت والدتك اخت ابي روبرتو حاكم البندقية . فلما سمع توندو ذلك ابتهج ونهض اليها فعانقها وقبلها وقضى الجميع ليلتهم في تلك الغابة على اتم الصفاء والسرور حتى اذا كان الصباح نهضوا جميعاً فعادوا الى لمبرديا

اما والد روزا فلما اصبحا بعد ليلة انصرافها استبطأ خروج ابنتهما من غرفتها ولما طال انتظارهما لدخول الغرفة فاذا هي خالية وافتقدوا الخادم روبرتو فلم يجدها فوق وقع هذا الحادث عندهما اشد وقع وارسلوا يبحثان عن الفتاة فلم يبقا لها على اثر واستولى الغم على ذلك المنزل وندم والدها على ما عاملها به من التشديد والغلظة وكان يزيد عليه تأنيب والدتها له على ذلك فيقضيان اوقاتهم بالمرارة والاسى

ولما عاد الامير توندو بجماعته الى لمبرديا كان اول شيء فعله انه انطلق الى بيت خنته روبرتو وفي صحبته ولده روبرتو وروزا فقص على والديها ما كان من الحديث المتقدم ذكره وعرفهما ان روبرتو هو ابنه الضائع الذي قضى هذه السنين كلها في البحث عنه فانقلبت احزان ذلك البيت الى افراح وقام بعضهم الى بعض فتعانقوا وهم يحمدون الله على اجتماع شملهم وجددوا مسرات العرس ولبثوا بعد ذلك يودعون يوم فرح ويستقبلون مثله الى ان ادركهم هادم اللذات ومفرق الجماعات

وانتهرهم ففترقوا هارين وهم يضحكون مما فعلوا . ورأى الامير ان الفتى قد خارت قواه وكانت ابنته تتوسل اليه بالدموع لتخليصه فالتقى بنفسه في الماء وانقذ الغلام سالماً الى البر ولما بلغاه وقف الفتى بمزيد الاحتشام وشكر الامير على انقاذه بأرق العبارات . فتأثر الامير لكلامه وقال له من انت ايها الفتى وابن من . قال اما انا فاسمي روبرتو واما ابي فلا اعلم عنه شيئاً قال وكيف ذلك اوليس لك هنا مكان تأوي اليه ولا احد من ذويك . قال مأواي شوارع المدينة وذوي ارباب الشفقة والاحسان ولم يكذبتم عبارته هذه حتى خففته المبرات . فازداد الامير تأثراً من حاله وقال له لا بأس تأتي الى بيتي وتقيم عندي فاجعل لك خدمة بين اشغالي فلي الفتى شاكراً وتبع الامير وابنته حتى وافوا المنزل فكان في جملة اهله

وبقي روبرتو سنتين في بيت الامير مثلاً للطاعة والادب والرصانة فلك قلوب كل من في القصر ولا سيما قلب روزا فانها كانت لا تسر الا برويته ولا ترتاح الا الى محادثته

وفي ذات يوم استدعى الامير ابنته واعلمها ان احد ابناء الاعيان طلبها زوجة له وقال لها انه يود ان يراها سعيدة قبل ان يفارق هذه الدنيا وقد عين للخطيب يوماً يأتي فيه ليرى خطيبته ويلبسها خاتم العهد . فاجفلت روزا لهذا الخبر الغريب وتعجبت من قطع والدها بمثل هذا الامر قبل مشورتها والوقوف على رضاها فقالت له عجباً يا ابنتي وكيف علمت اني اوافق على هذا الامر وانا لا اعلم لي بشيء منه ولا اعرف الرجل الذي جعلته نصيباً لي . نعم لست انكر ان طاعتك واجبة علي لكن لا فيما

يتعلق بحياتي واذا كنت كما تقول تحب ان تراني سعيدة فقد كان الاجدر ان تترك هذا الاختيار لي لأتولى بنفسى انتقاء من ارى انى اكون سعيدة معه . فلم يستغرب الأمير هذا الجواب من ابنته لما كان يعهد من نجابتها وذكاؤها غير انه استاء من مقاومتها له فقطب حاجبيه وقال لها أوتنقضين ما وعدت به يا روزا وتم قضاؤه من قبلي . قالت معاذ الله يا ابنت ان يكون نقضي له استخفافاً او عصياناً ولكني اعلم انى اذا قرنت بمن لا اختاره كان ذلك سبب تنغيص لي ولك وجر عليك ندامة حين لا ينفع الندم . قال واذا تركت لك هذا الخيار فهل انت واثقة بان يكون من تختارينه شخصاً يسرني . قالت نعم بلا ريب . قال ومن هو هذا الشخص . قالت هو ريبك روبرتو فقد ملت بكلي اليه وهو يحبني حباً لا مزيد عليه فاذا تزوجت يوماً ما فلن ارضى سواه بعلاً لي . قال تباً لرأيتك ما اسخفه وابعده عن مواقع افكارى فاني بينما افكر في تزويجك بالشرفاء والاغنياء وذوي الجاه والحسب اراك قد تعلقت بصعلوك حقير لو لم نجد عليه بفضلات طعامنا لكان الآن منسياً من عالم الوجود . قالت أو تظن يا ابي ان شرف الانسان بماله وحسبه ولو لم يكن في نفسه شريفاً أولاً يفضل مثل روبرتو بما فيه من الادب والصدق وصفاء النفس وطيب السريرة على كثير من هؤلاء الاغنياء المتصفين بما تعلمه من البذاءة والفجور والتمرغ في احوال المعاييب والنقائص وهل يغني عن امثال هؤلاء ان يكون في صندوق احدهم كذا من المال ينفقه على مذام الامور او ان يقول ابي فلان او جدي فلان وهو ليس من ابيه او جدّه ولا قلامة ظفر . قال

حسبك يا روزا من مثل هذه الافكار فلن يكون روبرتو سوى خادم لك ولا يكون زوجك الا من اخترته انا فاذهبي واستعدي لمسا امرت ان يكون . ثم دخل غرفته وذهبت روزا الى الحديقة فجلست على مقعد هناك واخذت تفكر فيما سمعته من ابيها وبينما هي كذلك اذ جاء روبرتو فراها كاسفة الوجه دامعة الطرف فوقف بازائها وسألها عن شأنها فاخبرته بما دار بينها وبين ابيها فاخذ روبرتو ينصح لها ان تقلع عن محبته لانه لا يملك شروى تغير ولا يدري ما يكون من مستقبله وان تطاوع اباها في الرضى بمن اختاره لها وتسلو هذا الشقي الحظ الذي طرحه القدر في طريق سعادتها . فقالت او انت ايضا تقنط من رحمة الله الا تدري ان لك رباً لم يخلقك وهو عاجز عن ان يأخذ بيدك ويعولك . كلا انى لن اتخذ سواك ولست بمطبعة لوالدي في هذا الامر ولو افضى الى اراقة دمي ولكن قل لي هل تحبني انت وهل توافقني على ما اريد فعله . قالت هذا وقد شغفته برقة حديثها وجمال طلعتها فصاح نعم احبك يا ملك سعادتي وانا اطوع لك من بناتك فانظري ماذا تأمرين . قالت حسبي هذا فكن على اهبة لما اشير به اليك في حينه

وقضت روزا بعد ذلك عدة ايام كان ههما فيها استمالة والديها الى موافقتها واقناعها بانه لا يجوز لهما ان يكرهاها على الاقتران بمن لا تهواه فلم يغن ذلك عنها شيئاً ولكن والدها زجرها واهانها وانذرها بقرب اليوم الذي ضربه موعداً للخطيب . ولما يئست من لين والدها ذهبت في تلك الليلة الى غرفتها فجثت امام سريرها وابتهمت الى مدبر الكائنات ان

- الشعر -

(تمة ما في الاجزاء السابقة)

وقد قدّمنا ان الاغراض الشعرية على ضربين احدهما ما يُقصد به العمل في القلب والتلاعب بمركات النفس وانفعالاتها فيتحرى فيه ذكر الاحوال المهيجة للحزن او الفرح او الغضب او الأنفة او غير ذلك وهو الاصل في غرض الشعر كما سبق الايماء اليه . والثاني ما يُنحى فيه الى اعمال الذهن والتأثير على القوى المدركة بما يخيّل لها من الصور المبتدعة والتماثيل المزخرفة وهذا الضرب اقرب الى مذاهب البلاغة منه الى اسلوب الشعر وعليه غالب شعر العرب لولوعهم بالاغراب وبناء لغتهم على التفنن في طرق البلاغة على ما هو معروف من مذهبهم في سائر كلامهم . والامثلة من هذا اشهر من ان تذكر وقد مرّ منها في الاجزاء الماضية ما يغني عن الاطالة هنا . واما المعاني الوجدانية فالوارد منها في شعرهم عزيزٌ نادر لا يحضرنا منه الا امثلة قليلة نورد بعضها في هذا الموضع بمنزلة نموذج يظهر به الفرق بين المذهبين . فمن ذلك قصيدة مالك بن الرب التميمي يرثي نفسه وكان قد خرج مع سعيد بن عفان لما ولي خراسان فلما كان في بعض الطريق اراد ان يلبس خفة فاذا بافقى فيه فلسعته فلما احس بالموت انشأ هذه القصيدة ومنها يقول

تقدت من يبكي عليّ فلم اجد سوى السيف والرحم الردينيّ باكيا
وأشقر خنذيذ يجرّ عنانه الى الماء لم يترك له الموت ساقيا
يريد بالاشقر مهره والخنذيذ الجسيم . ومنها

ياخذ بيدها ويرشد مسعاها ولما رقد كل من في القصر وخيم السكون على ارجائه نهضت فكثبت بضعة اسطر لوالديها تظهر لهما فيها ما ركبا من الخطاء والقسوة في اصرارهما على اكرامها وختمتها بوداعها ثم تركت الكتاب على سريرها وحملت كل ما كان في غرقتها من الحلى والحجارة الكريمة والنقود وانسلت الى غرفة الخدم لتوقظ روبرتو فلم تجده في سريره . فوقفت تفكر هنيهة ثم خرجت الى الحديقة وقد اضطربت افكارها ولم تدري كيف تقول معنى غيابه وبينا خطت بعض خطواتٍ شعرت بصوتٍ تحت نافذة غرقتها فاقتربت فاذا روبرتو جاثٍ على التراب وهو يتهل الى الله ان يلهمه ماذا ينبغي ان يفعل . فلم تلبث ان جثت بجانبه ولما اتمّ صلاته اسرّت اليه ما عزمت ان تفعله ثم قادته بيده الى باب الحديقة السريّ فخرجا من هناك وانطلقا تحت ستر الظلام ولما فصلا عن المنزل استأجرا لهما عربة فركباها وقصدا بلدة اخرى على مسافة عدة ساعات فبلغاها عند طلوع الفجر ثم صرفا العربة وتوجها الى دير هناك فدخلا وطلبت روزا مواجهة رئيسه فلما وافى قصّت عليه ما كان من حديثها وحديث والديها ولما وثق بصحة كلامها لم يبطئ ان اتمّ عقد روبرتو عليها ثم ادخلا الى غرفة فاقاما بياض نهارهما في الدير وعند المساء البسهما ملابس الرهبان واركبهما على دابّتين من دواب الدير وصرفهما مزدوين يركته ودعائه . فخرجا يجذّان السير وقد عزموا على مزايلة تلك الولاية باسرها والتقدم الى حدود فرنسا وكانا يسيران في الليل وينزلان في النهار الى ان مضى عليهما اربعة ايام . وفي مساء اليوم الخامس عاودا المسير وكانت في طريقهما غابة كثيفة فدخلا في تلك الغابة